ذو النُّون العالِم

إن صلة رجال التصوف بالعلم ـ على وجه العموم ـ صلة وثيقة، إنهم يتصلون ـ من قرب ـ بكتاب الله سبحانه: يتلونه متعبدين بتلاوته، ويكثرون تلاوته متقربين إلى الله بها فيفتح الله عليهم الكثير من أنواره، فيشيرون إلى هذه الأنوار ويتذكرون بعض ما فتح الله عليهم.

وهم يتصلون ـ عن قرب ـ بسنة رسول الله ﷺ، وذلك من أجل الاقتداء به، فيستفيدون منها لغة وأسلوباً، وفقهاً وأنواراً..

إن الذين أرّخوا للجنيد يقولون:

« كان (الكَتَبَةُ) يحضرون مجلسه لألفاظه، والمتكلّمون لتحقيقه، والفقهاء لتقريره، والفلاسفة لدقة نظره ومعانيه، والصوفية لإشاراته وحقائقه، وكان فقيهاً على مذهب أبى ثور، وكان يفتى فى حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة ».. وهو القائل:

« من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به فى هذا الأمر؛ لأن علمنا هذا مقيَّد بالكتاب والسُّنَّة ».

ولم يكن الجنيد بدعاً من الصوفية، فالفضيل بن عياض كان إماماً فى الحديث وهو ممن أسند عنهم البخارى..

ومعروف الكرخى: كان أحمد بن حنبل وابن معين ـ كما يقول الغزالى ـ يختلفان إليه ويسألانه، ولم يكن فى علم الظاهر مثلهما.

وسرى السقطى؛ كان أوحد أهل زمانه فى علوم التوحيد.

والحارث المحاسبى هو ـ كما قال التميمى ـ : إمام المسلمين فى الفقه والتصوف والحديث والكلام . . . ويقول عنه الإمام الغزالى :

« المحاسبى خير الأمة فى علم المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال » .

وأبو سليمان داود الطائى . . يقول عنه الذهبى :

« كان إماماً فقيهاً ذا فنون عديدة » . .

وسهل التسترى حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وكان يُسأل عن الزهد والورع والفقه وهو ابن عشر سنين فيُحسن الإجابة ، وهو القائل هذه الكلمة التى لها مغزاها العميق :

« ما أعطى أحد شيئاً أفضل من علم يستزيد به افتقاراً إلى الله » .

وأبو تراب النخشبى تتلمذ على الإمام الشافعى ، وتتلمذ عليه الإمام أحمد بن حنبل .

ومنصور بن عمار ؛ كتب إليه بشر المريسى سائلاً :

ـ ما قولك فى القرآن ، أمخلوق أم لا ؟

فكتب إليه هذه الكلمة النفيسة :

« أما بعد ، عافانا الله وإياك من كل فتنة ، فإن يفعل فأعظم بها من نعمة ، وإلا فهى الهلكة . . . اعلم أن الكلام فى القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب ، فتعاطى السائل ما ليس له ، وتكلّف المجيب ما ليس له ، والله تعالى الخالق ، وما دون الله مخلوق . . . والقرآن كلام الله ، وانته إلى أسمائه التى سمّاه الله بها تكن من المهتدين ، ولا تبتدع فى القرآنَ من قِبَلِكَ اسماً تكن من الضالين . .

﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1]» .

ويوسف بن الحسين كان عالماً أديباً .

وأبو عبد الله الترمذى ؛ قال الحافظ ابن النجار فى تاريخه :

« كان إماماً من أئمة المسلمين ، له التصانيف الكثيرة فى التصوف وأصول الدين ومعانى الحديث » .

وأبو بكر الورّاق الترمذى له التصانيف فى الرياضيات .

وأبو سعيد الخرّاز له التصانيف فى التصوف سلوكاً وثمرة .

وأبو العباس أحمد الآدمى ، وهو القائل :

« مَنْ ألزم نفسه آداب الشريعة نوّر الله قلبه بنور المعرفة ، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ فى أوامره وأفعاله وأخلاقه » .

وهو القائل :

« كل ما سُئلت عنه فاطلبه فى مفازة العلم ، فإن لم تجده ففى ميدان الحكمة ، فإن لم تجده فَزِنْهُ بالتوحيد ، فإن لم تجده فى هذه المواضع الثلاثة فاضرب به وجه الشيطان » .

وأبو حمزة البغدادى كان عالماً بالقراءات ، فقيهاً . .

وكان الإمام أحمد بن حنبل يثير أمامه المسائل ثم يسأله :

« ما تقول فيها يا صوفى ؟ » .

وإذا أردت أن أسير على هذا النسق أمكن عَدُّ مئات من الصوفية العلماء . .

ولابد للصوفى من العلم بسيرة رسول الله ﷺ حتى يحسن الاقتداء به ، فلابد له - إذن - من قراءة كتب الحديث والسيرة ، وفى ذلك علم كثير . .

(١) سورة الأعراف : ١٨٠ .

ومع أن صلة الصوفية بالعلم واضحة من خلال التاريخ، فإنه يحسن بنا هنا أن نذكر ونذكِّر ببعض الأعلام فى العلم والتصوف . .

إن الشيخ الأكبر[1] معجزة من معجزات الدنيا، لقد كان قمة فى الفلسفة، وكان قمة فى التفسير، وكان قمة فى الفقه، وكان قمة فى اللغة، وكان شاعرًا . . وإذا أردت أن تقول إنه فى العلم الكَسْبِىّ لا مثيل له، فإن لك من كتبه ما يبرر قولك.

بيد أن هذا العلم الكسبى يسير فيه - فى كل أجزائه - تيَّارٌ إلهامىٌّ يتجلَّى فى وضوح . .

ومن أجل هذه النفاسة فى إنتاجه يرى كثيرون ممن درسوا آثاره أنه أعظم شخصية علمية فى العالم، وهو - من غير شك - حسنة من حسنات أتباع محمد ﷺ . .

والإمام الغزالى ؛ إنه قمة فى كل ما تناوله قلمه من أبحاث فى الفقه وفى أصول الفقه وفى الفلسفة وفى التصوف، وكتابه « إحياء علوم الدين» - وهو أضواء من هدى الكتاب والسنة - خالد على الدهر . .

والإمام الشعرانى رضي الله عنه له من الآثار العلمية الكسبية الوهبية ما لا يكاد يحيط به محيط.

ونعود فنقول:

إن ذا النون لم يكن بدعاً من الصوفية فى الجانب العلمى، ولقد كان من صفات ذى النون البارزة أنه كان طلعة، وما سياحاته الكثيرة - التى سنذكر بعضها إن شاء الله - إلا أثرًا من آثار هذه الصفة البارزة.

---

(١) هو محيى الدين بن عربى .

وكانت هذه الصفة تقود ذا النون إلى ارتياد المجاهيل فى العلوم، كما كانت تقوده إلى ارتياد المجاهيل من الأقاليم.

وتبدو شخصية ذى النون الحقيقية فى وضوح، فيما يذكره عنه ابن القفطى فى كتابه « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » حيث يقول :

« ذو النون بن إبراهيم الإخميمى المصرى، من طبقة جابر بن حيان فى انتحال صناعة الكيمياء، وتَقلُّد علم الباطن، والإشراف على كثير من علوم الفلسفة.. وكان كثير الملازمة لبربا بلدة إخميم، فإنها بيت من بيوت الحكمة القديمة، وفيها التصاوير العجيبة والمثلات الغريبة، التى تزيد المؤمن إيماناً والكافر طغياناً..

ويقال : إنه فُتح عليه علم ما فيها بطريق الولاية، وكانت له كرامات »..

أما المسعودى - الذى توفى بعد ذى النون بمائة سنة كاملة - وكان أول مصدر تكلم عنه، فيخبرنا بأنه جمع معلوماته عن ذى النون من أهل إخميم، عندما زار هذا البلد، وهو يروى عنهم أن أبا الفيض ذا النون المصرى الإخميمى الزاهد كان حكيماً، سلك طريقاً خاصاً، واتخذ فى الدين سيرة خاصة، وكان من المعنيِّين بحل رموز البرابى فى إخميم، كثير الطواف بها.. وأنه وُفِّق إلى حل كثير من الصور والنقوش المرسومة عليها[1].

وكان الإمام فى هذا الطريق هو الإمام جعفر الصادق.. يقول صاحب كتاب « الصوفية فى الإسلام » :

---

(١) الصوفية فى الإسلام ص ٩، ١٠.

«جعفر الصادق ـ المتوفى سنة ١٤٨هـ يذكر عنه ، كما يقول صاحب « تذكرة الأولياء » ، أنه ألَّف رسالة فى الكيمياء ، والفأل والتطيُّر ، وأن جابر بن حيان ـ الكيميائى المعروف ـ كان يُدعى جابراً الصوفى ، وأنه تقلَّد ما تقلَّد ذو النون المصرى « علم الباطن » . . الذى يطلق عليه ابن القفطى اسم : « مذهب المتصوفين من أهل الإسلام »(١) .

وقال السلمى : « دخلت عليه فرأيت بين يديه طستاً من ذهب ، وحوله نَدٌّ وعنبر ، فأعطانى درهماً ، فأنفقت منه إلى أن وصلت إلى مقصدى » . .

ويقول المستشرق نيكلسون :

« ويُؤْثَر عنه أنه أول من وضع تعريفات للوجد والسماع ، وعرف التوحيد بالمعنى الصوفى ، ففيما ذكرناه ـ فيما أعتقد ـ ما يكفى للدلالة على أن ذا النون لا أبا يزيد البسطامى ـ كما يعتقد مستر هونفيلد ـ كان له أكبر الأثر فى تشكيل الفكرة الصوفية »(٢) .

وعن عبد الحكم بن أحمد بن سلام الصدفى قال :

سمعت ذا النون المصرى يقول :

« قرأت فى باب مصر بالسريانية ، فتدبرته ، فإذا فيه : يقدِّر المقدِّرون والقضاء يضحك » .

ولعل مما يتصل بهذا الجانب ـ الجانب العلمى ـ وينيره بصورة أوضح ، أن نذكر الآن تقدير العلماء لذى النون . .

---

(١) الصوفية فى الإسلام ص ١١ . (٢) الصوفية فى الإسلام ص ٨ .

قال أبو المحاسن : « إن ذا النون كان أول من تكلم فى مصر فى الأحوال ومقامات أهل الولاية » .

وقال عنه مسلمة بن قاسم : « كان عالماً صالحاً زاهداً ورعًا مفتيًا فى العلوم ، واحداً فى عصره » .

ويقول جامى : « هو رأس هذه الفرقة ، فالكل أخذ عنه ، وانتسب إليه ، وقد كان المشايخ قبله ، ولكنه أول من فسّر إشارات الصوفية وتكلم فى هذا الطريق »[1] .

« وهو أحق رجال الصوفية - على الإطلاق - بأن يطلق عليه اسم واضع أسس التصوف »[2] .

« وهو العارف الناطق بالحقائق »[3] .

« وكان أول من تكلم بمصر فى ترتيب الأحوال ، وفى مقامات الأولياء فُحول الرجال ، فقال جهلة المتفقهة : إنه زنديق »[4] .

ويتحدث عنه صاحب «الحلية» فيقول :

« ومنهم العَلَم المَضىّ ، والحَكَم المَرْضىّ ، الناطق بالحقائق ، الفاتق للطرائق . . . له العبارات الوثيقة ، والإشارات الدقيقة ، نظر فعبر ، وذكر فازدجر ، أبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصرى ، رحمه الله تعالى » .

وأقام «سهل التسترى» سنين لا يسند ظهره للمحراب ولا يتكلم ، فلمّا كان ذات يوم بكى ، واستند وتكلم ، وبالغ فى إبراز المعانى العجيبة والإشارات الغريبة . . فقيل له فيه ، فقال :

(١ ، ٢) الصوفية فى الإسلام ص ٧ . (٣ ، ٤) الكواكب الدرية ص ٢٢٣ .

« كان ذو النون بمصر حياً فما تكلمت ولا استندت إجلالاً له، والآن قد مات فقيل لى : تكلَّمْ فقد أذنت »[1] . .

وقال ابن يونس :

« كان عالماً فصيحاً حكيماً، امتُحن وأوذى لكونه أتاهم بعلم لم يعهدوه » .

تقديره للعلم :

قال ذو النون :

« كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضاً للدنيا ، وتركاً لها .. واليوم يزداد الرجل بعلمه للدنيا حباً ولها طلباً..

كان الرجل ينفق ماله على علمه ، واليوم يكسب الرجل بعلمه مالاً..

كان يُرى على صاحب العلم زيادة فى ظاهره وباطنه ، واليوم يُرى على كثير من أهل العلم فساد الظاهر والباطن ».

وكان يقول للعلماء :

« أدركنا الناس وأحدهم كلما ازداد علماً ازداد فى الدنيا زهداً وبغضاً ..وأنتم اليوم كلما ازداد أحدكم علماً ازداد فى الدنيا حباً وطلباً ومزاحمة .. أدركناهم وهم ينفقون الأموال فى تحصيل العلم وأنتم اليوم تنفقون العلم فى تحصيل المال »..

وكان يقول موجِّهاً الحديث للعلماء فى صلتهم بالحكام وذوى اليسار :

---

(١) الكواكب الدرية ص ٢٢٣ .

« العجب ـ كل العجب ـ من هؤلاء العلماء: كيف خضعوا للمخلوقين دون الخالق، وهم يدَّعون أنهم أعلى درجة من جميع الخلائق ؟! » .

وسئل رحمه الله عن الحديث : لِمَ لا تشتغل به ؟

فقال :

« للحديث رجال ، وشغلي بنفسي استغرق وقتي ، والحديث من أركان الدين ، ولولا نقصٌ دخل على أهل الحديث والفقه لكانوا أفضل الناس في زمانهم، ألاَ تراهم بذلوا علمهم لأهل الدنيا يستجلبون دنياهم فحجبوهم واستكبروا عليهم ، وافتتنوا بالدنيا لما رأوا من حرص أهل العلم والمتفقهين عليها ، فخانوا الله ورسوله ، وصار إثم كل من تبعهم في عنقهم، جعلوا العلم فخّاً للدنيا ، وسلاحاً يكسبونها به بعد أن كان سراجاً للدين يُستضاء به » .

ويحمل ذو النون حملة قوية على كل من ينحرف في سلوكه من العلماء فيقول :

« قد غلب على العُبَّاد والنُّسَّاك والقُرَّاء ـ في هذا الزمن ـ التهاون بالذنوب حتى غرقوا في شهوة بطونهم وفروجهم ، وحُجبوا عن شهود عيوبهم فهلكوا وهم لا يشعرون ، أقبلوا على أكل الحرام ، وتركوا طلب الحلال، ورضوا من العمل بالعلم، يستحي أحدهم أن يقول ـ فيما لا يعلم ـ : لا أعلم.

هم عبيد الدنيا ، لا علماء الشريعة ، إذ لو علموا بالشريعة لمنعتهم عن القبائح .. إن سألوا ألحُّوا، وإن سُئلوا شَحُّوا ، لبسوا الثياب على

قلوب الذئاب ، اتخذوا مساجد الله التى يُذكر فيها اسمه لرفع أصواتهم باللغو والجدال ، والقيل والقال ، واتخذوا العلم شبكة يصطادون بها الدنيا ، فإياكم ومجالستهم » .

ونأتى هنا بنموذج من إجابات ذى النون عن بعض الأسئلة :

يروى أبو بكر بن أبى الدنيا ، قال : قال بعض المتعبدين :

كنت مع ذى النون المصرى بمكة ، فقلت له :

ـ رحمك الله ، لِمَ صار الوقوف بالجبل ولَمْ يَصِرْ بالكعبة ؟

قال :

« لأن الكعبة بيت الله ، والجبل باب الله ، فلمَّا قصدوه وافدين أوقفهم بالباب يتضرَّعون » .

فقيل له : يرحمك الله ، فالوقوف بالمشعر الحرام كيف صار بالحَرَم؟

قال :

« لمَّا أذن لهم بالدخول إليه أوقفهم بالحجاب الثانى وهى المزدلفة. فلمَّا طال تضرُّعهم أمَرَهم بتقريب قُربانهم فتطَّهروا بها من الذنوب التى كانت لهم حجاباً دونه وأذن بالزيارة إليه على طهارة » .

قيل له : فَلِمَ كُرِهَ الصوم أيام التشريق ؟

قال :

« لأن القوم زاروا الله ، وهم فى ضيافته ، ولا ينبغى للضيف أن يصومَ عند مَنْ أضافه » .

قيل له : يرحمك الله ، فتعلُّق الرجل بأستار الكعبة لأىٍّ معنى ؟

قال :

« هو مثل الرجل تكون بينه وبين أخيه جناية : فيتعلَّق بثوبه ، ويتضرَّع إليه : ليغفر له جُرمه وجنايته » .

ويروى سعيد بن عثمان الخياط ، يقول :

سمعت ذا النون يقول ـ وقد سأله رجل ـ :

يا أبا الفيض ، رحمك الله ، من أراد التواضع كيف السبيل إليه ؟

فقال له :

« افهمْ ما ألقى إليك ، من أراد التواضع فليوجِّه نفسه إلى عظمة الله فإنها تذوب وتصفو ، ومَنْ نظرَ إلى سلطان الله ذهبَ سلطان نفسه ، لأن النفوس كلها حقيرة عند هيبته ، ومِنْ أشرفِ التواضع أن لا ينظر إلى نفسه دون الله ، ومعنى قول النبى ﷺ:

« مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ » . .

يقول :

« مَنْ تَذَلَّلَ بالمَسْكَنَةِ والفقرِ إلى الله رَفَعَهُ اللَّهُ بعِزِّ الانقطاع إليه» .

. . وبعد :

فإنَّا نختم هذا الفصل بقول ذى النون :

« تَكلَّمَ الناسُ مِنْ عَيْنِ الأعمال .. وتكلَّمتُ مِنْ عَيْنِ المِنَّة » .

* * *